جامعة الأزهر
كلية أصول الدين بالقاهرة



دور الدعاة في توجيه الأمة ودعم السلام بين أفراد المجتمع

بقلم
أ . د / عبد الفتاح عبد الغني محمد العواري
عميد كلية أصول الدين – القاهرة
جامعة الأزهر

ورقة عمل ضمن مؤتمر يعقد في
نيودلهي بالهند في الفترة من
١٢ – ١٣ مارس ٢٠١٦ م

دور الدعاة في توجيه الأمة ودعم السلام

بين أفراد المجتمع

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

فلا يخفى عليكم أيها السادة بأن خطورة الموقف الراهن الذي يعيشه العالم العربي والإسلامي على جهة الخصوص ، والعالم أجمع على جهة العموم تستوجب قدراً من المصارحة والمكاشفة ، والوضوح ، والإقرار بأن الإرهاب ، والتطرف الفكري قد استفحل خطره وطار شرره مما كان سبباً في تهديد السلم العالمي ، وضرب استقرار كثير من المجتمعات الإنسانية في مقتل ، حتى أصبح العالم كله مهدداً بالدخول في دوامة الفوضى المدمرة والعنف الذي لا يبقي ولا يذر .

لقد جاء مؤتمركم هذا الذي يعقد في مدينة نيودلهي عاصمة الهند حول موضوع : دور الأئمة الكرام في التنمية البشرية وبث الأمن والسلام ، وهو مؤتمر إسلامي عالمي تعقده جمعية أهل الحديث المركزية بالهند .

تلك الجمعية التي تمثل إحدى المؤسسات الإسلامية العريقة في الهند ، والتي تُعنْي في مناشطها العلمية والفكرية بنشر الدعوة إلى الله عز وجل على بصيرة ، وإصلاح المجتمع وتنظيم شئون التعليم والتربية ، والقيام بخدمة

المجتمع الهندي بصفة خاصة ، والمجتمعات الإنسانية بصفة عامة انطلاقاً من منهج الوسطية والاعتدال .

ومن منطلق المسؤولية الشرعية والوطنية والإنسانية الملقاة على عاتق الأزهر الشريف وإيماناً منه بضرورة المواجهة الفكرية ، وتصحيح كثير من المفاهيم الخاطئة ، والأفكار المنحرفة ، وبيان دور الدعاة إلى اللّٰه في جميع ذلك كي يوجهوا الأمة توجيهاً نافعاً ، ويعملوا على تنمية قدراتهم البشرية ، ونشر الأمن والسلام .

رأى الأزهر تكليفي بالحضور والمشاركة للدعاة والعلماء هذا المؤتمر الهادف بناء على دعوة كريمة تلقاها الأزهر من دولة الهند (جمعية أهل الحديث المركزية) وقد كتبت هذه الورقة مساهمة مني في تمثيل الأزهر الشريف في هذا المؤتمر الهام .

أيها الدعاة : لقد بات الناس يتشوّقون إلى الخروج من هذا الظلام الدامس الذي فرضته فئة من المنتسبين للإسلام ، فئة فقدت مقدّمات النظر ، والفهم الصحيح للنصوص الشرعية ، وأسلمت قيادها لمن سخرّها للإساءة للإسلام .

أيها الدعاة : عليكم واجب البيان للناس أن تلك المجموعة ممن أعلنت الحرب على المجتمعات بسبب أفكارهم المتطرفة التي تسرّبت إلى عقولهم فأحدثت قطيعة وانفصالاً فكرياً وشعورياً بينهم ، وبين مجتمعاتهم ، من سوّلَت

لهم أنفسهم استخدام العنف المسلح وسيلة للتغيير ، ولا شك أن ذلك كُله يُجسَّد حالة من الخلل والانحراف الفكري الذي سيطر على تلك العقول فدفعها إلى الاستدلال بالنصوص الشرعية في غير مواضعها ، واعتناق التفسيرات العنيفة المتطرفة ، حتى وصل بهم الحال جميعاً إلى تكفير المسلمين بالذنب ثم استحلال دمائهم بعد ذلك .

أيها الدعاة : واجبكم أن تبيّنوا للناس أن هذه الجماعات حرّفت مفهوم الكفر وحرّفت مفهوم الجهاد ، وحرّفت مفهوم الحاكمية ، ومفهوم الخلافة ، ورمت المجتمعات بالجاهلية ، وراحت تقتل من أرادت زعماً منها أنه الجهاد ، وأن هؤلاء القتلة إنْ قُتِلُوا فهم شهداء في الجنة.

لقد دَعَوْا بإلحاج شديد إلى إحياء الجهاد الذي سمّوه " الفريضة الغائبة " مستندين إلى مجموعة مرتكزات جعلوها أساس القول بالتكفير وهي قاعدة التكفير بسبب انخرام رُكن من أركان الإيمان ، ثم قاعدة التكفير بسبب ترك العمل ، وارتكاب الكبائر ، ثم قاعدة التكفير تبعاً لحكم دار الإقامة .

وقد انتهى تفريعهم على هذا التأصيل إلى أن ترك العمل هو إخلال بالإيمان ، وأن مرتكبي الكبائر كفار ، وأن ديار المسلمين ليست ديار إسلام .

أيها الدعاة : عليكم واجب البيان بأن من أبرز مخاطر الإرهاب والتشدد والغلو في الدين استعداء الكثير من الشعوب ضد الإسلام ، وتنامي ثقافة

الكراهية ضدّ الإسلام والمسلمين ، والتأثيرات السلبية على الأقليات المسلمة في المجتمعات الغربية والأوربية وغيرها .

حيث يعمل الإرهابيون على تبنّي الدعوات لإلغاء الآخر وإقصائه ، وعدم الاعتراف به ، ويعملون على محاربة لغة الحوار ، والمجادلة بالتي هي أحسن التي علمنا الله إياها معشر الدعاة : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾[1] ويعملون على عدم الاعتراف به ، لأن لغة القتل والذبح والحرق هي المعتمدة لدى تلك التنظيمات الإرهابية .

ومما لا شك فيه أن الإسلام قد حرّم سفك الدماء ، وانتهاك الأعراض ، وسلب الأموال وجاءت مقاصد شريعته السمحة لتحافظ على تلك الكليات ، إلا أن ممارسات تلك العناصر قد أدّت إلى إلصاق التهم بالإسلام ، وإلى تكدير السلم العالمي ، وإلى التأثير على المواطنة العالمية التي رسّختها تعاليم الدين ، وبينت محاسنُ شريعته حقوقها ، وواجباتها ، وأحاطتها بسياج منيع ، وضمانات عملية للعمل على صيانتها وكفالتها ، حيث دعا الإسلام إلى التعايش مع الآخر ، ولم يعرف التاريخ أمة من الأمم سوّت المخالفين لها في دينها بأبنائها المنتسبين لها في سائر الحقوق والواجبات ، وقوانين العدالة ، ونوال حظوظ الحياة في الدنيا بقاعدة : (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) مع بقائهم على دينهم ، وعادتهم ، مثل

(١) النحل : ١٢٥ .

أمة الإسلام تماماً بتمام ، وإنْ دلّ ذلك على شيء فإنما يدل على عظمة الإسلام التي تتجلى في سماحته مما تذهب معها كلّ الدعاوى الباطلة التي يحاول أن يلصقها به أعداؤه معتبرين أن الإسلام دين إرهاب وعنف وتعصب .

أيها الدعاة : **بينوا للناس** : أن شريعتكم تحترم التعددية الدينية ، والمذهبية والثقافة ، وتدعو إلى التعاون مع وجود الاختلاف الذي ليس من قبيل التضاد وإنما هو من قبيل التنوع ، وجاءت نصوص القرآن الكريم تقرر أن من سنة اللَّه في خلقه أن تنوعت أجناسهم ، وألسنتهم وألوانهم ، كما تنوعت عقائدهم وأن الخلاف باق بقاء الإنسان على هذه الأرض ، وأن التعدد والتنوع مما مضى به القدر الإلهي : ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآَمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾[1] وقال سبحانه : ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** ﴾[2].

ولا يتصور مع وجود ذلك الاختلاف أن ينعزل المجتمع المسلم عن غيره من المجتمعات الإنسانية ، ولذلك فقد جاء الإسلام لينظم علاقة المسلم مع غيره من بني جنسه من المسلمين وغير المسلمين ، وكانت تعاليم الإسلام في

---

(١) يونس : ٩٩ .

(٢) هود : ١١٨ – ١١٩ .

معاملة غير المسلمين بمختلف أصنافهم ودياناتهم من أهل الكتاب وغيرهم دليلاً واضحاً وبرهاناً ساطعاً على احترام الإسلام للأديان الأخرى .

أيها السادة : على الدعاة أنْ يبينوا للناس أن الله سبحانه وتعالى لم ينزل الأديان من لدنه لشقاء الناس ، ولا لتعريضهم للضرر والرهبة والخوف والرعب ، وإنما أنزلها نوراً وهدى ورحمة ، والمسلمون على وجه الخصوص أبعد الخلق قاطبة عن الإرهاب ، وما يتولد عنه من عنفْ ، وقتلٍ ، وسفكٍ للدماء ، وإزهاق للأرواح .

والباحث المنصف – بصرف النظر عن معتقده وديانته – بالتأمل الصادق ، والاستقراء التام لنصوص القرآن الكريم يقطع يقيناً بلا امتراء أنه لا يوجد كتاب سماوي توعد سفك الدماء بالعقوبة المغلظة في الدنيا والآخرة مثل القرآن الكريم ، فقد أوجب القرآن الكريم القصاص في القتل العمد في الدنيا ، وتوعّد قاتل النفس عمداً بجزاءٍ شديدٍ في الدار الآخرة قال الله تعالى : ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴾ [1].

فهل بعد ذلك يمكن أن يوصف دينُنا الحنيف (دين الإسلام) بالإرهاب وهو الدين الذي أعلن رسوله ﷺ أن المسلم هو (من سلم الناس من لسانه ويده

---

(1) النساء : ٩٣ .

)[1] وقال : " كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه "[2].

ولم يقتصر هذا الدين العظيم على تحريم القتل ، وتحريم إسالة الدم فحسب بل حرم ترويع الناس ، وتخويفهم حتى لو كان الترويع والتخويف على سبيل المزاح فقال ﷺ : (من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى يدعه وإن كان أخاه لأبيه وأمه)[3] وقال ﷺ : (لا يحل لمسلم أن يُروّع مسلماً)[4].

وكيف يتهم هذا الدين بالإرهاب والعنف والقتل والهمجية ، وقد وصف الله النبي الذي حمل هذا الدين ، وبلّغه للناس بأنه رحمة للعالمين ، فقال تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾[5] وهو ﷺ وصف نفسه بقوله : (يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة)[6] أي أنا رحمة الله المهداة للعالمين .

والمتأمل في الآية الكريمة والحديث الشريف لابُدّ له من أن ينتهي إلى

---

(١) رواه أحمد ١١/ ٣٦٦ ، ٦٥٨ ، ١٤/ ٤٩٩ / ٣٩٧ والطبراني في الأوسط ٣/ ٢٨٧ والكبير ٢٢/ ٧٨ .

(٢) رواه مسلم في صحيحه – كتاب الآداب رقم ٦٦٣٣ .

(٣) رواه مسلم – كتاب الآداب رقم ٦٧٥٩ .

(٤) رواه أحمد في مسنده ٢٣٠٦٤ وأبو داود رقم ٥٠٠٤ .

(٥) الأنبياء : ١٠٧ .

(٦) أخرجه البيهقي في الشعب ٢/ ٥٢٧ / ٥٢٩ وابن أبي شيبة في مصنفه ٦/ ٣٢٥ والدارمي في سننه ١/ ١٦٦ رقم ١٥ .

حقيقتين لا مجال فيهما لريبة أو شك :

الحقيقة الأولى : أن " الرحمة " بمفهومها الأعم الواسع هي الحكمة التي من أجلها بعث الله نبيه إلى الناس ، وهذا ما يقتضيه أسلوب القصر ـ البلاغي في الآية وفي الحديث ، وبحيث تتطابق الآية مع الحديث تطابقاً تاماً في الدلالة على أن نبي الإسلام هو – حصراً – نبيُّ الرحمة ، وبُعث من أجل الرحمة ، وأن الرحمة بالخلق هي الغاية من مجيئه إلى هذا الوجود .

والحقيقة الثانية : التي نستخلصها من التأمل في الآية والحديث هي عموم رحمته ﷺ بالعوالم كلها بمعنى أنه رحمة الله إلى الخلق كافة ، وإلى الناس أجمعين ، وأن رحمته ليست خاصة بالمسلمين فحسب ، بل تتعداهم – بنص الآية – إلى غيرهم من سائر الأمم من الشعوب ، وهذا ما يؤخذ من كلمة (العالمين) والتي لا يتوقف مفهومها ومعناها عند حدود عالم الإنس فقط ، بل يشمل أيضاً كل العوالم التي أحصاها العلماء والحكماء والفلاسفة وحصروها في عوالم الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، والجماد .

وأنتم أيها الدعاة – لو قلبتم صفحات سيرة نبيكم سيدنا محمدٍ ﷺ وألقيتم نظرة سريعة عليها فلسوف يدهشكم شمولُ رحمته ﷺ لكل هذه العوالم بدءاً من الجماد ، وانتهاءً بالإنسان ، فقد كانت له ﷺ مع الجماد صلاتُ مودةٍ وسلام عبر

عنها في قوله الشريف : " أحدُ جبل يُحبنا ونحبه "[1] وفي قوله ﷺ : " إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسلَّمُ عليّ قبل أنْ أبعث إنيّ لأعرفه الآن " [2] .

وأوضح من ذلك نهيه الصريح لجيوش المسلمين أن يهدموا في حروبهم بيوت الأعداء أو يخرّبوا عمرانهم ، أو يقطعوا شجرهم ويقلعوا نباتهم ، ويعقروا نخيلهم ، وقد ورد ذلك وغيره في أوامر حاسمة يقول فيها النبي ﷺ : " لا تغلُّوا ولا تَغْدِروا ولا تمثلّوا ، ولا تقتلوا وليداً " [3]. وفي حديث آخر : (ولا تقطعُنَّ شجرة ولا تَعْقِرُنَّ نخلاً ، ولا تهدموا بيتاً) [4]، ووصايا أخرى سار عليها أصحابه وخلفاؤه من بعده ، ومنها وصية الصدّيق رضي اللّه عنه لجيش أسامة ، وتحذيرهم من قتل الأطفال في بلاد العدو أو الشيخ الكبير أو المرأة أو الأجير أوْ الرهبان ، أو ذبح الحيوان إلا لضرورة الأكل ، وعلى قدرها دون تجاوز أو زيادة .

على الدعاة أن يعلموا الناس هذه القيم وتلك الأخلاق ، وليقولوا للعالم كله قارنوا وتأملوا الفرق بين هذه الأخلاق الإنسانية العليا التي حكمت سيوف

---

(١) من حديث رواه البخاري رقم ١٤٨٢ ، ٢٨٨٩ ، ٢٨٩٣ ، ٣٣٦٧ ، ٤٠٨٣ ، ٤٠٨٤ ، ٤٤٢٢ ، ٥٤٢٥ ، رواه مسلم رقم ٣٣٠٠ ، ٣٣٥٠ ، ٣٣٥١ ، ٣٣٥٢ ، ٦٠١٢ .

(٢) رواه مسلم رقم ٦٠٠٣ .

(٣) رواه الحاكم في المستدرك ٤/ ٥٨٢ ومالك في الموطأ رقم ١١ وغيرهما .

(٤) من حديث رواه البيهقي في السنن بنحوه ٩/ ١٥٣ رقم ١٨١٥٠ .

المسلمين في حروبهم ، وألجمتها عن تجاوز العدل حتى في مواجهة العدو وبين همجية الحروب الحديثة التي تُبيد النساء والرجال ، والأطفال إبادة جماعية ، وتَهْدِم البيوت على رؤوس أصحابها ، وتُزيل قرى كاملة من الوجود ، كي يتبيّن للجميع أن الإسلام هو دين الرحمة وأن نبيه ﷺ هو نبي الرحمة.

أفبعد هذه المقارنة يحلو لأعداء الإسلام أن يصوّروا هذا الدين – الذي يدور على مفهوم الرحمة ومعناها وجوداً وغاية وهدفاً – في صورة العنف والقتل وإرهاب الآمنين !

نقول : إن هذا الدين الحنيف ما كان ليوصم من الأعداء بهذا الإفك المفترى لولا ما ابتليت به هذه الأمة في الآونة الأخيرة بنابة سوءٍ من أبنائها وشبابها يقترفون جرائم القتل والحرق والتمثيل بجثث المسلمين وغير المسلمين ، ويظنون أنهم بجرائمهم هذه يجاهدون في سبيل اللّٰه ويُحيون دولة الإسلام ، وقد كفرّوا مَنْ خالفهم من المسلمين ، ولم يعتنق أفكارهم الشاذة ، ومذاهبهم المنحرفة التي يرفضها الإسلام ، ويبرأ منها وينكرها أشد الإنكار .

ودوركم أيها الدعاة وأنتم تتحملّون مسؤولية البلاغ والبيان أمام اللّٰه تعالى يوم القيامة ألا تألوا جهداً في التنبيه المستمر على انحراف هذه الأفكار ، وأنها ليست من الإسلام والقرآن والشريعة لا من قليل ولا كثير ، وأن حملة هذه الأفكار مضلَّلون في تنكبهم هُدى اللّٰه ورسوله ، وأنهم من حيث يعلمون أو لا

يعلمون أساؤوا إلى الإسلام بأكثر مما أساء إليه أعداؤه ، وشوَّهوا صورته السمحة النقية وقدّموا بعبثهم بالإسلام صوراً مغشوشة شائهة استغلها أعداء هذا الدين السمح في داخل العالم الإسلامي وخارجه ، وطعنوا بها على الإسلام وغمزوا ثوابته ، وسخروا من رسوله ﷺ ومن سنته وشريعته .

بصرّوا الشباب – أيها الدعاة بمحاسن الإسلام ، وسماحة تعاليمه ويسر تشريعاته من أجل أن يحصّنوا من هذا الفكر المسموم ، ولعل في تبصيرهم عبرة وعظة للشاردين ، فيراجعوا أحوالهم ، ويفيقوا من سكرتهم ، ويثوبوا إلى رشدهم ، وعليكم أن تعلموا الشباب أن الغلّو الذي أضرّ بهؤلاء وأدى بهم – وبنا معهم – كأمة – إلى هذه الفتنة العمياء قد حذرنا منه رسول الله ﷺ في قوله : (أيها الناس إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلوُّ في الدين) [١] وفي قوله ﷺ : (هلك المتنطعون) [٢] أي المغالون والمتجاوزون في الأقوال والأفعال [٣].

الدعاة والدعوة إلى السلام :

دور الدعاة في دعوة الناس إلى السلام دور هام جداً ويمكنكم أن تقوموا

---

(١) رواه ابن ماجة في سننه . كتاب المناسك ح ٣٠٢٩ .

(٢) رواه مسلم – كتاب العلم رقم ٦٨٧٨ .

(٣) تراجع محاضرة لفضيلة الإمام الأكبر أ . د / أحمد محمد الطيب ألقاها في جامعة شريف هداية الله الإسلامية ، الحكومية بجاكرتا ص٨ – ١١ .

بهذا الدور بين الناس جميعاً ذلكم لأن ديننا الإسلام يدعو إلى السلام ودعوة الإسلام إلى السلام تتجه أولاً إلى سلام النفس ، وصفائها ، وإلى إضعاف عوامل الغل ، ودوافع الأنانية ، تتجه إلى تخليص النفس من الاضطراب والقلق أو من الميل إلى الاعتداء . والنفس تقلق أو تضطرب إذا سيطر عليها الخوف في الحياة ، وتميل إلى الاعتداء إذا استبدت بها الأنانية التي تجعلها لا ترى ، ولا تحفظ للغير حرمات وجوده .

ولكي يصل الإسلام في دعوته إلى سلام النفس ، وضع أمام الإنسان هدفاً أولاً يسعى إليه ، ويقترب منه ، ويكافح في سبيله جعل اللَّه له غايته في الحياة ، و (اللَّه) فوق الأرض التي يعيش عليها الإنسان ، وفوق وجوده المادّيّ الذي يحسّه ، ويشاهده ، فوق المال والولد ، وزينة الدنيا كلها .

ويقصد الإسلام من وراء تحديد هذا الهدف في حياة الإنسان أن يقلل دائرة الخصومة ، والاحتكاك في جوانب الحياة المادية ، فالحياة المادية لم تكن غاية نهائية للإنسان ، لأنها ليست المركز الذي تدور حوله حياته وهي كذلك بالتالي ليست جديرة بأن تكون مصدر تنازع وتخاصم بين الإنسان والإنسان وأولى بالإنسان أن يرتفع بإنسانيته فوق الأسباب المادية في حياته .

ولم يقصد الإسلام إطلاقاً من جعل الهدف النهائي في حياة الإنسان وراء الجوانب المادية الواقعية أن يبخس قيمة هذه الجوانب ، ولا أن يقلل من شأنها

في حياة الإنسان ، وإلا لما كان الإنسان نفسه ذا وجود مادي ، ولما كانت حياته مرتبطة بواقعه الذي يعيش فيه ارتباطاً قوياً على النحو الذي نُحسه ونُدركه ....

وإذا قلت الشحناء على الوجود المادي – لأنه ليس الغاية النهائية في حياة الإنسان – اتسع نطاق الاطمئنان النفسي ، وضعف عامل الخوف ، وقلّ خطر الاعتداء . وهنا يتحقق سلام النفس ، وصفاؤها ومن نفوس الأفراد التي تحقق لها السلام والصفاء يقوم مجتمع يسود السلامُ علاقات أفراده ، إذ السلام الحقيقي لأي مجتمع ليس في دعوة هذا المجتمع للسلام ، وفي ندائه إليه ، وإنما في سلام نفوس أفراده ، وفي صفائها ، وتخلّصها من سيطرة عوامل الغل والحقد والأنانية .

والتركيز على الجانب الماديّ وحده في الحياة هو مصدر الغل والحقد والأنانية ، وبالتالي مصدر التنازع ، والتباغض ، والقلق والاضطراب ، والتوازن بين الجانب المادي ، وما فوق المادي من مثل وقيم هو سبيل التخلص من شرور الحياة الإنسانية ، وبالتالي سبيل السلام الفردي والجماعي .

إنّ دعوة الذين يؤمنون بالوجود المادي وحده إلى السلام دعوة تنقض نفسها ، وهي في حقيقة أمرها ميلٌ إلى التوسع والاستعمار ، والاعتداد ولكنه ميلٌ مغلف ، ولغلافه بريق يخدع ، إن لكلمة السلام في فلسفة أصحاب المادية مدلولاً خادعاً .

إن الحرب العالمية الأخيرة انتهت بالدعوة إلى السلام ، وراج اسم السلام وتكرر نداؤه بعدها ، ولكن الإنسانية لم تر منذ ذلك الحين إلا مظاهر القلق التي تحملها الحرب الباردة .

فعلى الدعاة أن يعلموا الناس : أن الإيمان بالله وحده هو الذي يعيد السلام إلى النفوس والشعوب والمجتمعات .

إن الإيمان بالله وحده هو الذي يخفف من طغيان المادية التي تتمثل في الأنانية والاعتداء ثم في القلق والاضطراب .

إن الإنسان في حاجة إلى دنيا وآخرة ، وفي حاجة إلى مادية وروحية لأنه نفسه يصور المادية والروحية معاً .

إن السلام في الإيمان بالله وحده وفي الدعوة إليه ، وإن القلق والاضطراب والخوف ، والاعتداء في البقاء في إطار الوجود المادي دون اعتراف بالقيم وفي إنكار الله ، ومهما ساند العلمُ الوجود المادي ، وجعله يطغى على الأبصار ، والأسماع ، والمشاعر – فإن العلم قلما يُسْعد الإنسانية طالما لا يقترن بالإيمان بالله ﴿ **وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىَ دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىَ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [1] اهـ [2].

---

(1) يونس : ٢٥ .

(2) يراجع : الدين والحضارة الإنسانية أ . د / محمد البهي ص١٠٨ فما بعدها – هدية هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف .

وكلمة الإسلام ، كما يفهم من دلالتها المطابقية تحمل دلالات السلام والاستسلام وفي وصف النبي محمد ﷺ للمسلمين بقوله : " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " [1]. وفي رواية : " المسلم من سلم الناس من لسانه ويده " [2]. والقيم المركزية ، والمثل العليا للإسلام تشكل الأساس للتحرك غير العنيف في السنة ، ومن بين المبادئ الرئيسة للا عنف في الإسلام الحديث المشهور للنبي ﷺ : " لا ضرر ولا ضرار " [3] .

وقد كان النبي ﷺ في حياته يعيش مثالاً للسلام واللاعنف فلم ينسب إليه قط أنه مارس شكلاً من أشكال العنف البدني أو اللفظي ، كما أن تعاليمه تؤكد أن ممارسة العنف محرمة ضد كل المخلوقات ومع أنه ﷺ دافع عن نفسه عندما هوجم هو وأتباعه إلا أنه جعل السلام يهيمن عندما أصبح ذلك ممكناً ، حتى مع المخاطرة بحياته ، ومن بين الأمثلة على ذلك صلح الحديبية ، والذي كان له تأثير على حياة النبي ﷺ في علاقته مع المشركين ، حيث قبل النبي ﷺ الشروط القاسية من خصومه وذلك من أجل السلام .

---

(1) سبق تخريجه .

(2) سبق تخريجه .

(3) رواه ابن ماجة كتاب الأحكام رقم ٢٣٤٠ / ٢٣٤١ وأحمد في مسنده ٢٨٦٥ والحاكم ٢/٦٦ .

وقد عرّض النبي نفسه وأصحابه لخطر كبير بدخوله مكة دون سلاح ، حتى يستطيعوا أن يؤدُّوا عمرتهم بسلام ، وقد كان تصرّف النبيّ ﷺ مع أهل مكة مثالاً عظيماً على المقاومة غير العنيفة للظلم الذي يمارسه كبار مكة ووجوهها .

ومع أن رسالة النبي لم تُحرّم استخدام القوة عند الحاجة إلا أنه لم يعتبر هذا جزءاً أساسياً من رسالته ، حيث مثّل قوله تعالى : ﴿ **وَالصُّلْحُ خَيْرٌ** ﴾ [1] أساس رسالته ﷺ - كما مثلت من قبل كون إرساله رحمة للعالمين أساس رسالته .

وآية ﴿ والصلح خير ﴾ حول النزاع الأسري ، إلا أن المصطلح المستخدم هنا يشير إلى أن السلام له مكانة سامية في كل جوانب الحياة ، ولهذا كان النبي ﷺ يشجع على التوجّه نحو السلام وقتما كان هذا ممكناً ، حتى في قلب الحرب يقول اللَّه تعالى : ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [2] فاللَّه تعالى يأمره أن يقبل السلام ، وأن يثق باللَّه وحده ، وأن يتوكل عليه .

والقرآن يأمر النبي ﷺ وأتباعه أيضاً أن يحلُّوا الخلاف فيما بينهم بشكل

---

(١) النساء : ١٢٨ .

(٢) الأنفال : ٦١ .

سلميّ يقول تعالى : ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ** ﴾ (١) وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا** ﴾ (٢).

وليبيّن الدعاة للناس كيف تعامل النبي ﷺ مع قضايا التسامح والسلام في العلاقات بين الأفراد ؟

فالذي يستقرئ كتاب الصلح من صحيح البخاري يرى كيف كان تعامله مع ثقافة التسامح وقضايا السلام التي تتعلق بالإصلاح بين الناس أو صنع السلام ؟

والسلام يأتي جنباً إلى جنبٍ مع اللاعنف ، فاللاعنف هو خطوة مهمة في عملية السلام، والقرآن الكريم يصف مقام المؤمنين في الآخرة بأنه دار السلام وذلك في قوله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ** ﴾ (٣) وتحية الملائكة لأهل الجنة في الآخرة هي ﴿ **سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ** ﴾(٤) وتحية أهل الجنة هي السلام ﴿ **وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ** ﴾(٥) ﴿ **تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ** ﴾ (٦)

---

(١) الأنفال : ١ .

(٢) الحجرات : ٩ .

(٣) يونس : ٢٥ .

(٤) الرعد : ٢٤ .

(٥) يونس : ١٠ .

(٦) الأحزاب : ٤٤ .

ويقال لأهل التقوى يوم القيامة ﴿ **ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ** ﴾[1].

والسلام مما يتصف به المؤمنون ، حتى إنه يُشار إلى ما يجده المؤمنون من بعض نعيم الآخرة من تناغم وصفاء بكلمة السلام يقول تعالى : ﴿ **لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا . إِلاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا** ﴾[2] .

والسلام اسم من أسماء اللَّه الحسنى وصفة من صفاته ، ومن هنا على المسلمين أن يتخلّقوا بأخلاق اللَّه فيكونوا مسالمين ، والإسلام من حيث المبدأ يهدف إلى جعل هذا العالم مكاناً يسود فيه السلام ، تعيش فيه كل المخلوقات في أمن وسلام ، وهذا ما يجعل البشر يقتربون من اللَّه تعالى ، ويعكس اسم اللَّه السلام ضياءه في كل مكان .

مهمة الدعاة أن يبيّنوا للناس ، ويعلّموهم ، ويشيعوا بينهم ثقافة السلام ضاربين لهم نماذج من حال المسلمين الأوائل ، وما تعرضوّا له من اضطهاد شديد من مشركي مكة ، ولكن النبي ﷺ لم يُرخص لأحدٍ من أصحابه لمدة طويلة أن يثأروا أوْ يستخدموا القوة ، ولو حتى من أجل الدفاع عن النفس ، مع طلب بعض أصحابه ، ولكنه طلب منهم بدلاً من ذلك الصبر على الاضطهاد ، وهو ما أجبر بعضهم في نهاية الأمر على الهجرة من بلدهم مكة العزيزة على

(١) الحجر : ٤٦ .

(٢) الواقعة : ٢٥ – ٢٦ .

نفوسهم إلى الحبشة ، حيث وجدوا هناك السلام والأمان .

ونبيّ الإسلام نفسه ﷺ اختبأ مع أقرب أصحابه إليه في كهفٍ بعيداً من هذا العنف الذي مورس ضده ، وبهذا استطاع أنْ يهاجر إلى المدينة ، وقد دُعِي هناك إلى الإصلاح بين قبيلتين من العرب ، وبحماية اللَّه تعالى للنبي ﷺ ، ومكانته الجليلة في المجتمع استطاع المسلمون الأوائل الدفاع عن أنفسهم ضد مشركي مكة ، ولكن النبي كان دائماً يفضل منهج اللاعنف في الرد على الاضطهاد .

ورغم أن النبي ﷺ كان نبي المرحمة إلا أنه كان نبي الملحمة عندما يضطره الأمر لمواجهة الاضطهاد الذي تعرض له .

وقد استمر هذا حتى نزل الإذن في القرآن الكريم بالدفاع الهجومي ضد المعتدين ، حيث قال تعالى : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ** ﴾ [1] .

وبسبب هذا الإذن في الدفاع باستخدام القوة المؤقتة ضد المعتدين عُرِف النبي محمد ﷺ بين الأنبياء والآخرين بأنه " صاحب القضيب " اهـ [2] .

ولو رجعنا إلى سنته المطهرة ﷺ لأعطتنا بعض أحاديثها مثالاً وأنموذجاً

---

(1) الحج : ٣٩ – ٤٠ .

(2) يراجع : الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ٤٥٥ – ٤٥٧ نقلاً عن الإسلام والتسامح في فكر فتح اللَّه كولن ص٨٩ – ٩٢ .

من حياته ﷺ حيث جاءه أعرابي يوماً ، وجذبه من ثوبه بشدة حتى إن أثر الجذبة بدا في عنق النبي ﷺ ، ثم قال الأعرابي : مُرْ لي من مال الله الذي عندك ، يسأله شيئاً من الغنائم ، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك دون غضب ، ثم أمر له بعطاء "[1].

والذي يجب التنبه له وعدم الغفلة عنه أن النبي ﷺ كان يتعامل مع مشكلات مجتمع من أشد مجتمعات التاريخ جموحاً وميلاً إلى العنف وكان تغيير السلوكيات من أصعب مهماته.

وقد سجل المؤرخون أن القسوة قد وصلت في قلوب أفراد المجتمع الذي عاش فيه النبي ﷺ لدرجة أنهم كانوا يدفنون بناتهم أحياء ، وقد عاب القرآن بشدة هذه التقاليد القبلية بقوله : ﴿ **وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ** ﴾[2].

وقد غيرّ هدي النبي ﷺ قلوب هؤلاء الناس وعقولهم إلى درجة جعلتهم يُظْهرون حُنّواً وشفقة لا للبشر فحسب ، بل لأدنى المخلوقات ، والنبي ﷺ لم يقم بهذا التغيير باستخدام القوة ، ولكن رسالته رسالة الرحمة والسلام هي التي أحدثت هذا التغيير في عقلية هذا المجتمع .

ومن خلال طريق السلام ، واللاعنف بلَّغ النبي ﷺ الوعي إلى قومه حيث

(١) البخاري كتاب فرض الخمس ٣١٤٩ كتاب اللباس ٥٨٠٩ كتاب الأدب ٦٠٨٨ .

(٢) التكوير : ٨ – ٩ .

يقول القرآن إنّ مهمته هي ﴿ **الْبَلاَغُ الْمُبِينُ** ﴾ [1] وبهذا فقد واجه اضطهاد أهل مكة في صبر وجلد ، مستمراً في تبليغ رسالته ، وقد طلب من أصحابه اكتساب هذا السلوك ، وقد حذّرهم من أي شكل من أشكال العنف التي يمكن أن تحدث في المستقبل ، والتي سماها فتنة داخل المجتمع الإسلامي ، والتي حدثت بالفعل في شكل حرب أهلية ، وهو ما أخبر النبي ﷺ به ، وقد سأل صحابي النبي ﷺ : يا رسول اللَّه : ما النجاة ؟ قال : (أملك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك) [2].

وقد تجنب أغلب الصحابة الفتنة والفوضى ، وهو ما أصبح في الحقيقة مبدأ لأهل السنة في الإسلام في مواجهة الفوضى ، والاضطراب الاجتماعي .

ومن المعروف أن الغزالي – رحمه اللَّه تعالى – من مؤيدي هذا المبدأ [3] ويعد هذا المبدأ الإسلامي أكثر توافقاً مع مبدأ تجنب الاستفزاز أو " البقاء في البيوت " كما عند بعض علماء دراسات اللاعنف [4].

ولو رحنا إلى القرآن الكريم لوجدنا آياته الكريمة تشير إلى كفاح الأنبياء

---

(١) النور : ٥٤ .

(٢) رواه الترمذي رقم ٢٤٠٦ وابن أبي شيبة ٧/ ١٠٣ وأحمد في سننه ١٧٤٥٢ .

(٣) يراجع : الاقتصاد في الاعتقاد .

(٤) يراجع : استكشاف بدائل اللاعنف . جين شارب ص٣٦ – ٣٧ .

مُقدّماً إيّاهم باعتبارهم أمثلة للصبر والثبات حيث ينظر العلماء مثلاً إلى قصة القرآن الكريم عن ابني آدم (قابيل وهابيل) باعتبارها مثالاً على اللاعنف في الإسلام يقول اللَّه تعالى عنهما : ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (١).

والإسلام يعلمنا أن المرء الذي يبدأ بعمل الشر يتحمل وزر كل الشرور التي ترتكب بعده ، ولهذا فإن قابيل يتحمل وزر كل من يقتل شخصاً ظلماً على مرّ العصور لماذا ؟ لأنه أول من سنّ القتل . وفي الوقت نفسه نجد المعالم الإسلامية للشخص السلمي موجودة في شخصية هابيل الذي تجنب مقابلة الشر بالشر .

وبانتهائنا من تفصيل تمسك الرسول ﷺ بمبدأ اللاعنف تتبادر إلى الذهن قضية الهجوم المرحلي ، فهل قام النبي ﷺ في أيّ وقتٍ من حياته بمهاجمة أعدائه ؟

لاشك أن النبي ﷺ هاجم أعدائه عندما تم الاعتداء عليه هو وأصحابه وعندما لم يجدوا أيّ طريق آخر لإيقاف المشركين ، يقول اللَّه تعالى : ﴿ **وَجَزَاءُ**

---

(١) المائدة : ٢٧ – ٢٨ .

سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾[1].

ورغم أن النبي ﷺ قد قام بالدفاع ضد المعتدين ، والمهاجمين إلا أنه كثيراً ما قام بالعفو أيضاً .

وقد امتدت هذه الرحمة والعفو حتى إلى أعدائه ، فقد ورد في كتب الحديث أنه قاتل مع أصحابه محارباً خَصْمه ، فرأوْا من المسلمين غرة (أي غفلة) فجاء رجل يقال له غَوْرَثَ بن الحارث حتى قام على رسول اللَّه ﷺ فقال : من يمنعك مني فقال ؟ اللَّه ! فسقط السيف من يده ، فأخذه رسول اللَّه ﷺ فقال : " من يمنعك مني " ؟ فقال الرجل - كن خير أخذ – فقال له أتشهد أن لا إله إلا اللَّه – قال لا ولكني أعاهدك أنْ لا أقاتلك ، ولا أكون مع من يقاتلونك ، فخلىَّ رسول اللَّه ﷺ سبيله ولم يعاقبه ، فرجع الرجل إلى قومه فقال : " جئتكم من عند خير الناس "[2].

فالإسلام دين السلام شرع للمسلمين أن يكافحوا الظلم أينما كان بشرط ألا يتسبب في ظلم أكبر ، فإذا عرض لهم مثل هذا الوضع فالقرآن يُقدّم لنا البديل ، وهو الصبر والصلاة ، حيث يؤكد أنه إذا تعرّض الناس للاضطهاد ،

---

(1) سورة الشورى : ٤٠ .

(2) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجهاد (٨٤) باب المغازي ، ومسلم في صحيحه ك صلاة المسافرين (٣١١) باب الفضائل ، ومسند الإمام أحمد ٢٣/ ١٩٣ .

والسخرية ، فعليهم أن يصبروا وسيلاقون الجزاء الجميل لهذا الصبر ، كما قال الله تعالى في سورة " المؤمنون " : ﴿ **إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ. فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ . إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾[١]. وجزاء هؤلاء الصابرين يكون على قدر الصبر والثبات حيث أصبح قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾[٢] حصناً لا مثيل له للمؤمنين ومن هنا كان على المؤمن أن يمارس مقاومة نشاطه وفعّاله ، حيث قال النبي ﷺ مشجعاً على المقاومة " أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائز "[٣]، ولكن هذه المقاومة ينبغي أن تكون بطريقة إيجابية حيث يقول تعالى : ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ** ﴾[٤].

ويقول كثيرون : إن القرآن يقدم مناهج السلم من خلال قصص أنبياء أهل الكتاب مثل نبي الله موسى عليه السلام ، فعندما أمره الله عز وجل هو وهارون أن يبلغا رسالته سبحانه وتعالى إلى فرعون قال لهما : ﴿ **فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا**

---

(١) المؤمنون : ١٠٩ – ١١١ .

(٢) البقرة : ١٥٣ .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الملاحم (١٧) .

(٤) المؤمنون : ٩٦ .

﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾[1] وهذا التأكيد على أسلوب الحوار الذي ينبغي أن يُستخدم مع مستبدّين مثل فرعون يقدّم بالفعل مثالاً على أهمية اللاعنف في هدي القرآن .

ويمكننا أن نرى في نفس القصة مقاومة غير عنيفة في إقرار السحرة بالحق عندما هدّدهم فرعون .

وفي القصة أنهم **﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾**[2] ، فأنكر عليهم فرعون ذلك وهدّدهم بالصّلْب ، فجاء ردّهم على هذا التهديد مثالاً آخر على تربية اللاعنف حيث قالوا : **﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾**[3].

التاريخ خير شاهد :

التاريخ بأكمله يشهد بأن أكبر قوة يملكها الإسلام قوة الدعوة إلى الإسلام الذي هو دين السلام ، لأنه دينٌ يطابق الفطرة الإنسانية مطابقة تامة وإنه لو عُرض على الإنسانية في صورته الحقيقية لأقبلت الإنسانية إليه إقبال الهَيَمّ الظماء على الماء ، دينٌ لا يلبث أن ينفذ إلى قرارة النفس ، ويتمكن من

---

(١) سورة طه : ٤٤ .

(٢) سورة طه : ٧٠ .

(٣) سورة طه : ٧٢ .

صميم القلب مما يجعل المرء مضطراً للاعتراف بحقيقته .

دين السلام في ذاته يحمل قوة تسخيرية ذاتية لدرجة أنه يضطر الناس إلى التأثر والإعجاب به .

لكن هذه القوة لا تعمل عملها إلا إذا أُزيلت كل العراقيل النفسية بين هذا الدين الحق ، ومخاطبيه ، ولَنْ يقوى على ذلك سوى أنتم معشر الدعاة .

لقد كان المسلمون في القرون الأولى يدركون هذا السرّ العجيب إذ تمسّكوا بمبدأ التسامح والسلام بصورة عامة ، حيثما دخلوا من البلاد والأمم فاتحين ، واعترفوا لكل واحدٍ من أهل هذه البلاد بالحرية الكاملة فيما يتعلق بدينه ، وعقائده ، فما أجبروا أحداً من أهل هذه البلاد على ترك ما يدين به أو يعتقد .

وكانوا يعلمون أنهم لو فتحوا صراعاً طائفياً مع هذه الشعوب ، أو تناولوا الناس بالاضطهاد والقهر في أمر الدين ، فلتأخذنهم الحمية بالعناد والتعنت ، مما يقودهم إلى إنكار أمرٍ غير قابلٍ للإنكار .

وقد اعترف المؤرخ الإنجليزي الشهير هنري توماس بكل (١٨٢١ – ١٨٦٢) للمسلمين الأوائل بهذه الحكمة والتدبير بكلمات واضحة حين قال : (إن الدعاة الإسلاميين لعلى جانب عظيم من الحكمة والروية) [١].

وفي كتاب آخر للبروفيسور آرنولد يقول : (لقد التزم الدعاة المسلمون في

---

(١) The mohammetam missionales are very judicious . P. (٤٠٩)

كل الأماكن والبلاد بمبدأ التسامح الديني أشد الالتزام ، وبالرغم من امتلاكهم أزمّة السلطة السياسية لم يتصدّوا قط لإثارة الخلافات الدينية مع الشعوب غير المسلمة ، وإن هذا لهو السبب الأكبر في أن جزءاً كبيراً من المعمورة في العصر القديم انضوى تحت الدين الإسلامي كذلك اليوم يمكن أنْ تبرز هذه القوة الدعوية للإسلام ، بكل ما تنطوي عليه من إمكانات تسخيرية ، ولكنّ ذلك منوط بأن يبادر المسلمون المعاصرون بالقضاء على جميع تلك الصراعات الطائفية التي فتحوها مع جيرانهم من غير المسلمين في كل بقعة من العالم ا هـ .[1]

إن هذه الصراعات الطائفية ، والتي أُطلق عليها اسم " الجهاد " خطأً لأكبرُ عائق في سبيل بروز القوة الدعوية لدين السلام ، ويوم أن يتم القضاء على تلكم الصراعات ، سيأخذ يومئذٍ الفيضان الدّعويّ للإسلام في التدفق ، وسيبقى يتدفق حتى يبلغ إلى منتهاه غير أن الدعاة الإسلاميين المعاصرين إنما يمموا وجهتهم شطر أعمال أخرى تضر الدعوة ولا تنفعها ، غير واعين بهذا الأمر وحالهم مع دولهم المسلمة قريب جداً من حالهم في الدول غير الإسلامية ففي دولهم الإسلامية تراهم يثيرون ضجة سياسية ، ويخوضون في التناحر مع الحكام الذين تحوّلوا في نظرهم إلى أعداء نتيجة ردود الفعل ، ونجم عن ذلك

---

(١) The preaching of islam .

ضياع فرص الدعوة في معظم الدول الإسلامية تقريباً .

مَنْ يتحمل هذا الفشل الذريع للدعوة ؟ ومن يعوضها فرصها الضائعة ؟ لاشك أنهم قادة الدعاة .

وفي الدول غير الإسلامية حيث يمثل المسلمون الأقلية بين سكانها قام قادة الدعوة بنفس العمل الذي قام به الدعاة في دولهم الإسلامية ففي كلا الجانبين تجري صراعات غير مجدية ، ضاعت مِنْ جرّائها فرص الدعوة مع فارقٍ بسيط بينهما ، وهو أن الصراعات التي تجري في الدول الإسلامية كانت باسم إقامة النظام السياسي للإسلام بينما تجري في الدول غير الإسلامية لإثبات الهوُية القومية للمسلمين .

إن ذينك النوعين من العمل من قبيل العبث دونما شك ، والدليل على عبثيته ، وبطلانه الفشل والإخفاق ، وأرى أن هذا من اللَّه فكأن اللَّه تعالى حكم عليهم بالفشل والإخفاق ، ولو وضعوا الجبال والبحار فوق ظهورهم . ا هـ .

أيها الدعاة : إن ثمة أمراً واحداً ينبغي أن تقبلوا عليه إن أردتم خدمة دينكم ، والعيش في سلام مع أنفسكم وإخوانكم بني الإنسانية ألا وهو الإقبال على دعوة الناس إلى اللَّه ، فأنتم الذين تمتلكون الصدق الأصيل الذي لم تشبه شائبة التحريف ، ودعاوى التخريف ، والأساطير الموروثة البالية ، وليس أحد غيركم يملك المصداقية التاريخية .

وهذا سرُّ نجاحكم في الدنيا – متى أدركتموه – وخلاصكم في الآخرة وهذه هي المسؤولية التي ألقى الله على عاتق الدعاة للأبد ، فإذا ما نهضوا بذلك العمل ، وقاموا بواجب المسؤولية فسوف يجعلون أنفسهم أحقّ برحمة الله الواسعة ، وإذا تخلفوا عن ذلك فإنهم سيقعون في قبضة الله ، والصراعات التي فجروها باسم الإسلام – والإسلام منها براء – لن تنقذهم من قبضته سبحانه وتعالى . ا هـ[1].

الأصل في العلاقات الدولية في الإسلام هي السلام :

الذي عليه جماهير الأمة سلفاً وخلفاً أن الباعث على القتال هو اعتداء الكفار على الإسلام وردّ اعتدائهم ، وليس الباعث على قتال الكفار كفرهم – كما يتوهم البعض ، وهذا ما قرّره جمهور الفقهاء ، وقد عقد ابن تيمية فصلاً في رسالته القتال " بحث فيه الباعث على القتال : أهو اعتداء الكفار على الإسلام وردّ اعتدائهم أم الباعث على قتال الكفار كفرهم ؟ وذكر أن ثمة اختلافاً بين الفقهاء ، فقرّر أن جمهور الفقهاء يقررون أن الباعث على القتال هو ردّ اعتداءٍ على المسلمين ونُسب إلى بعض الشافعية أن الباعث على قتال الكفار كفرهم والتمكين للدعوة الإسلامية التي هي أمانة في عنق المسلمين ، إذ عليهم أن

(١) يراجع : تاريخ الدعوة إلى الإسلام ص٦٦ – ٧٠ بتصرف ومزيد إيضاح للأستاذ / وحيد الدين خان .

يدعوا إلى الإسلام حتى تستمر كلمة الله هي العليا .

ثم نراه – رحمه الله تعالى – قد رجح نظر الجمهور وساق له أدلة من القرآن ومن السنة ، ومن أعمال الصحابة – رضي الله عنهم – فذكر بالنسبة للقرآن قوله تعالى : ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا** ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً** ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ **فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ** ﴾[4] وقوله تعالى : ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ** ﴾[5].

ويستدل من السنة بأن النبي ﷺ كان يدعو مسالماً ، والمشركون يؤذونه ، وقد أعنتوا الصحابة بالإيذاء ليفتنوهم عن دينهم الذي ارتضوا ، والنبي ﷺ في أثناء ذلك يصابرهم ، ويدعوهم بالموعظة الحسنة ، حتى أرادوا أنْ يقتلعوا هذا

---

(١) سورة البقرة : ١٩٠ .

(٢) سورة البقرة : ١٩٣ .

(٣) سورة التوبة : ٣٦ .

(٤) سورة البقرة : ١٩٤ .

(٥) سورة النحل : ١٢٦ .

الدين من أصله بقتل النبي ﷺ فخرج مهاجراً وهم يترصدون .

ومن ذلك الوقت ، وبعد أنْ استقر الإسلام في المدينة اتجه النبي ﷺ إلى تأمين طرق الدعوة ، وليمنع الفتنة التي يريدها المشركون للمسلمين ، فقد أركسوا فيها ، وليستنقذ المؤمنين برسالته من هول الفتنة التي هم فيها ، وإنهم إذا استكثروا أن يكون قتال قال لهم اللَّه في كتابه : ﴿ **وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ** ﴾[1].

وإن النبي ﷺ ما أرسل جنداً إلى الشام ليقاتل الرومان إلا لأن الرومان أخذوا يفتنون المؤمنين عن دينهم ، فقد أمر هرقل بقتل مَنْ آمن مِنْ أهل الشام ، فكان لابُدّ من القتال لحماية المؤمنين الذين يؤمنون ، ولذلك أرسل من قاتلهم في الشام ، وأوصى وشدّد في تنفيذ وصيته أن يرسل جنده على رأسهم أسامة بن زيد الذي قتل أبوه في المعركة الأولى ، وسيَّر الصدّيق – رضي اللَّه عنه – ذلك الجيش مع اشتداد المرتدين ، ومحاولتهم أن يحاصروا المدينة المطهرة .

وقد سار الصحابة على هذا المنوال ، فقد أرسلوا الجيوش إلى أرض كسرى ، وقد همّ بأن يصنع بالنبي ﷺ ما حاول المشركون أنْ يصنعوه ، ولكن اللَّه سبحانه وتعالى نجّاه إذ أن النبي ﷺ لما أرسل إليه يدعوه إلى الإسلام أرسل هذا الكسرى إليه من يقتله – عليه السلام – ...

والحق أن النصوص القرآنية تسند رأي جمهور الفقهاء وتؤيده ، ذلك لأن

(١) سورة البقرة : ١٩١ .

الدعوة إلى السلم في القرآن مطلقة غير مقيدة ، بينما إباحة القتال نجدها في كل نصوص القرآن مقيدة بأنها من مقابلة الاعتداء بمثله ، فالله – سبحانه وتعالى – يدعو إلى السلام فيقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (1) ويقول سبحانه : ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(2) ويقول سبحانه : ﴿ وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾(3) ويقول سبحانه : ﴿ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾ (4).

فهذه النصوص كلها تدعوا إلى الإسلام دعوة مطلقة غير مقيدة ، وهي تدلّ على أن كل من يلتزم السلم لا يُقاتَل ، ولو كان ينتمي إلى قبائل تقاتلُ النبي

(1) سورة البقرة : ٢٠٨ .

(2) سورة الأنفال : ٦١ – ٦٣ .

(3) سورة النساء : ٩٤ .

(4) سورة النساء : ٩٠ .

ﷺ .

والنص الأخير سيق في هذا المعنى إذْ إنه ورد في الذين حَصِرتْ صدورهم أن يقاتلوا النبي ﷺ أوْ يقاتلوا قومهم ، فاختاروا اعتزال الحرب ، فليبقوا على حيادهم ، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى بعد ذلك : ﴿ **سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا** ﴾[1].

وبتتبع أخبار النبي ﷺ نجده كان لا يُقاتل إلا في إحدى حالين :

إحداهما : اعتداء على المسلمين أوْ توقع لهذا الاعتداء ، إذا تبيّن أنّ العدو يأخذ الأهبة لينقضّوا على المسلمين ، وما كان للنبي ﷺ أن ينتظر حتى يضربوا جماعته .

والثانية : أن يقف الملوك محاجزين بينه وبين الدعوة الإسلامية ثم يفتنون المسلمين عن دينهم كما حدث مع ملك الرومان .

وبالجملة : فإن الأصل في العلاقة بين المسلمين وغيرهم هو السلم حتى يكون هناك اعتداء أو يتوقع اعتداء ، ولو لم يكن هناك عهد مقرر للسلم مقيم لدعائمه ، منظم لأحكامه ، وأن الأحكام الشرعية لم تتخلّ عن المثل العليا التي

---

(١) سورة النساء : ٩١ .

قررتها نصوصها المستندة إليها من حماية الفضيلة والحريات والعدالة ، وما ذكر قط في أن فقهاء شريعتنا – رحمهم اللَّه قد قرّروا أن الفتح يعطي الدولة الإسلامية سلطاناً غير مبني على الفضيلة والعدل ، والتقوى ، فلا سادة ولا مسود ، ولا غالب ، ولا مغلوب ، بل عدل ، وإنصاف . ا هـ[1] واللَّه أعلم .

---

(1) يراجع : العلاقات الدولية في الإسلام ص٣٢ فما بعدها . هدية مجلة الأزهر شهر ذي الحجة ١٤٣٦ هـ . ط . مطابع دار الجمهورية للصحافة .

فهرس الموضوعات